

الإمارة التنوخية في اللاذقية

ملاح لتكوين الصورة

إحسان جعفر

كبير من أسرهم ، لا بل ان بعض المؤرخين يرجع هذا الاستقرار الى عهد الحكم الروماني قبل الاسلام والفتح العربي ، غير أن تأسيس امارتهم في اللاذقية حدث في سنة ٢٤٩هـ أيام خلافة أحمد المستعين العباسي ، ففي هذه السنة - حسب ما يذكر اليعقوبي - وثب « بالمعرة المعروف بالفصيص ، وهو يوسف بن ابراهيم التنوخي ، فجمع جموعاً من تنوخ، وصار الى مدينة قنسرين، فتحصن بها ، فلم يزل بها حتى قدم محمد المولّد ، مولى أمير المؤمنين ، فاستماله واستمال غطيف بن نعمة ، وصار اليه، ثم وثب بغطيف بن نعمة فقتله ، وهرب الفصيص ، فصار الى جبل الأسود ، واجتمعت قبائل كلب بناحية حمص على الامتناع على المولّد ، فسار اليهم فواقعهم،

تتناقل كتب الأدب ان أبا الطيب المتنبي وفد على عدد من الامراء التنوخيين في اللاذقية، بيد أن هذه الكتب تسمي هؤلاء الأمراء، وتسكت عنهم ، ولا تعطي أية تفاصيل موسعة أو تلقى حزمة من ضوء على امارتهم العربية التي حرمت من الاسهاب التاريخي ، وكانت تعاصر اماره سيف الدولة الحمداني في حلب وفترة الحروب العربية - البيزنطية التي تجددت كأشد ماتكون في القرن الرابع الهجري . وقد تتبعت نشأة هذه الامارة وعصرها الذهبي ونهايتها ، فدونت بعض الملامح التاريخية والأدبية التي قد تساعد على تكوين صورة ما .

وسكنى التنوخيين في اللاذقية تعود الى عهود قديمة حيث استقر فيها عدد

من القوات والماء ، فنزلوا على الامان فوفى لهم ، وأكرمهم ، ودخلوا معه حلب مكرمين معظمين ، فأضيفت اليه حمص مع حلب . »

ويلوح أن التنوخيين سرعان ما استطاعوا أن يعيدوا سلطانهم الى اللاذقية ، فعندما زارها أبو الطيب المتنبي سنة (٣٢١ هـ) ، ولم تكن سنة قد أربت على العشرين ، كانت اللاذقية بحوزتهم ، وقد احتوى ديوانه على قصائد عديدة في مدح أمرائهم الذين تتالوا على حكم اللاذقية لعهدده وهم : محمد بن اسحاق والحسين بن اسحاق وعلي بن ابراهيم ، وفي رثاء محمد بعضها من غرر قصائده ، ومن شأنها أن تضيضي ضوءا ورواء على امارتهم يعوضان عما افتقدته من اسهاب .

ويتبادر لنا أن الامارة التنوخية غدت بعد قيام الدولة الحمدانية في حلب تحت سيادة سيف الدولة الحمداني الذي بسط سيطرته على المعرة وحماه وحمص ومنطقة اللاذقية ، ويلوح أن أمراءها كانوا على اتفاق معه ، وربما كان يعاملهم معاملة الولاة ، غير أنهم مع ذلك كانوا يتمتعون بالاستقلال الذاتي في تدبير شؤون بلادهم .

ومما يدعو للأسف ان حظ تنوخي اللاذقية من الاسهاب التاريخي والامتداد المطبوع بطابعهم أقل بكثير من حظ اللبنانيين منهم ، وهذا ماجعل الدارسين يغفلون عنهم ويظنون أن الحركة التنوخية خاصة بلبنان ، ويذكرون تنوخي لبنان دون

فكانت عليهم ، ثم وثبوا عليه ، فهزموه ، وقتلوا خلقا عظيما من أصحابه ، وانصرف الى حلب في فلكه ، ورجع الفصيص الى قنسرين ، وجرت بينه وبين كلب محاربة ، وعزل المولّد وولي أبو الساج الأثروسي ، وكتب الى الفصيص يؤمنه ، وصير اليه الطريق والبذرة ثم ولاه اللاذقية ونحوها . »

والفصيص هذا : يوسف بن ابراهيم التنوخي ، رأس الأمراء التنوخيين في اللاذقية ، وایاه عنى أبو الطيب المتنبي في بيتين له قالهما في معرض مديحه للحسين ابن اسحاق التنوخي أمير اللاذقية لعهدده :

وجدنا ابن اسحاق الحسين كجده
على كثرة القتلى بريئا من الاثم

أطعناك طوع الدهر يابن ابن يوسف
بشهوتنا والحاسدولك بالرغم

وكان الفصيص قبل توليه امارة اللاذقية « غازيا يقتل الكفار » أي الروم البيزنطيين ، كما نوه بذلك الواحدي في شرحه لديوان المتنبي .

وقد أصيبت الامارة التنوخية في اللاذقية بتزعزع سنة ٣١٩ هـ ، عندما ولى مؤنس المظفر ، الذي كان يدبر شؤون الخلافة العباسية للقاهر ، غلامه : طريف بن عبد الله السبكري الخادم على حلب ، « وكان ظريفا شهما شجاعا ، وحاصر بني الفصيص في حصونهم باللاذقية وغيرها ، فحاربوه حربا شديدا حتى نفذ جميع ماكان عندهم

تنوخي اللاذقية ، وقد دون محمد عزة دروزه نبذة عنهم رجع فيها أنهم وتنوخي لبنان من قبيلة واحدة هي تنوخ قضاء ، وذكر أن التنوخيين حينما وجهوا من منطقة معرة النعمان التي كانوا قد استقروا فيها عقب حركة الفتح العربي الاسلامي قد وجهوا الى سواحل الشام وجبالها القريبة لصد غارات الروم البيزنطيين في البحر واحباط دسائسهم بين نصارى هذه الجبال والسواحل وتقوية العنصر العربي الاسلامي فيها وانهم اتجهوا من المعرة الى اللاذقية أولا حيث تقع في طريقهم ، فاستقر منهم جماعات في منطقتها ، وجاء منهم جماعات أخرى الى لبنان حيث استقروا في أنحائه الجبلية الغربية المحاذية لبيروت . ونوه الى أن ذلك هو أيضا رأي فليب حتي حيث ذهب الى القول : ان تنوخي لبنان واللاذقية والمعرة هم من قبيلة واحدة هي تنوخ قضاء التي كانت في بلاد الشام قبل الاسلام ، بينما يذهب شكيب أرسلان الى أن تنوخي اللاذقية والمعرة فقط هم من تنوخ قضاء دون تنوخي لبنان .

وأولى القصائد التي قالها أبو الطيب المتنبي في التنوخيين مرثيته في الامير محمد بن اسحاق بن يوسف التنوخي الذي توفي في السنة التي وفد فيها المتنبي عليهم ، وربما كان قد سعى الى اللاذقية ليرثي عميدهم الذي قال فيه :

ما كنت أمل قبل نعشك أن أرى
رضوى على أيدي الرجال تسير

خرجوا به ولكل باك خلفه
صعقات موسى يوم دك الطور

والشمس في كبد السماء مريضة
والأرض واجفة تكاد تمور

وحفيف أجنحة الملائك حوله
وعيون أهل اللاذقية صور

وفي ديوان المتنبي بالاضافة الى هذه المرثية ثلاث قصائد مهداة الى الحسين أخي محمد بن اسحاق الذي تولى الامارة بعده ، وكان شابا جميل الطلعة ومحاربا مقداما عمت مآثره وأخبار كرمه آفاق البلاد كما يقول بلاشير في دراسته عن المتنبي ، الذي جعل وفاته سنة ٣٦٨هـ نقلا عن لويس شيخو في شرح مجاني الأدب ، والذي أعلمه أنه في سنة ٣٥٦هـ كانت اللاذقية بيد الامير علي بن ابراهيم بن يوسف الفصيص ابن عم الحسين اذ أورد هذه الاشارة ابن العديم في زبدة الحلب ، وبهذا اما أن يكون تاريخ وفاته خطأ اذ أن بلاشير لم يطمئن لهذا التاريخ ، فقد عقب عليه بقوله : « ولا نعلم مصدر هذا الخبر الذي اعتمد عليه لويس شيخو » أو أن علي بن ابراهيم خلع الحسين الذي توفي بعد ذلك في التاريخ الذي أشير اليه ، فقد كان ثمة صراع بين التنوخيين أنفسهم اذ كان ليوسف بن ابراهيم ابنان : اسحاق وابراهيم ولأسباب نجهلها استأثر أبناء اسحاق بالامارة دون أبناء ابراهيم الذي أرجح كونه الابن الأكبر ليوسف وذلك من اتفاق اسمه مع اسم جده والعادة أن يسمى

الابن الاكبر باسم الجد ، فلذلك نظر أبناء ابراهيم الى أبناء عمومتهم نظرة المغتصبين، والذي يؤكد مازهدت اليه أن المتنبي لم يرث الحسين بن اسحاق وكان قد رثى قبله أخاه محمدا .

ومما يؤيد ما ذهبنا اليه قول المتنبي مخاطبا الامير عليا :

وقد مزقت ثوب الغي عنهم
وقد ألبستهم ثوب الرشاد
فما تركوا الامارة لاختيار

ولا انتحلوا وداك من ودا
ومن هؤلاء الذين لم يفتك بهم الامير والباسهم ثوب الرشاد ! ومن هؤلاء الذين علي ؟ وانما اكتفى بتمزيق ثوب الغي عنهم كان المتنبي قد نزل بهم في اللاذقية ومدحهم، وهو الآن في ظل الامير الجديد يلجأ الى تسويغ مدحه ؟ أليسوا : الحسين بن اسحات وآله ؟؟ حيث يقول

أشرت أبا الحسين بمدح قوم
نزلت بهم فسرت بغير زاد
وظنوني مدحتهم قديم
وأنت بما مدحتهم مرادي

وكيف يكون هو بما مدحهم مراده اذا لم يكن هنالك رابط بين الاثنين .

غير أن الامراء التنوخيين خضعوا بعد وفاة سيف الدولة الحمداني للبيزنطيين فان أبا الحسين « علي بن ابراهيم بن يوسف

الفصيص سلم اللاذقية لنقفور فوقاس ، امبراطور الروم ، عندما وصل الى اللاذقية سنة ٣٥٧هـ في نطاق حملته على بلاد الشام ، فقد ذكر ابن العديم في زبدة الحلب أن نقفور بعد فتح جبلة توجه الى اللاذقية فانحدر اليه أبو الحسين علي بن ابراهيم ، فوافقه على رهائن تدفع اليه منها ، وانتسب له مفرن نقفور سلفه ، وجعله سردغوس وسلم أهل اللاذقية ، ويذكر رنسيما في تاريخ الحروب الصليبية أنه خلفها وراءه وقد اشتعلت بها النيران (!٠٠٠)

وقد ظل للتنوخيين سلطان في اللاذقية طيلة بقاء البيزنطيين فيها حتى عام ٤٧٧هـ حيث استولى السلاجقة على اللاذقية ، وقد حاول التنوخيون في آخره من أيامهم التفلت من سيطرة البيزنطيين التي ضعفت ، ففي عام ٤٧٣هـ قام قاضي جبلة أبو محمد عبد الله منصور بن الحسين التنوخي المعروف بابن صليحة - وكانت جبلة تخضع للبيزنطيين ، وعليها مثل اللاذقية من قبل البيزنطيين قضاة من تنوخ - بثورة على البيزنطيين ، وقد استطاع بفضل معونة قاضي طرابلس جلال الملك بن عمار تخليص المدينة .

● احسان جعفر

المصادر والمراجع مرتبة حسب الاهمية :

- ١ - تاريخ اليعقوبي (بيروت : دار صادر ، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م) ، ٢ : ٤٩٧ .
حوادث سنة ٢٤٩هـ .

- ٢ — ديوان المتنبي ، طبعة البرقوقي .
- ٣ — ابن العديم ، زبدة الحطب من تاريخ حطب تحقيق سامي الدهان (دمشق : المعهد الفرنسي ، ١٩٥١م) ، ١ : ٩٧ .
- ٤ — محمد راغب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حطب الشهباء (حطب ١٩٢٣ — ١٩٢٥ م) . ١ : ٢٣٨ .
- ٥ — محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة (دمشق : ١٩٥٩ م) ، ٢ : ١٢ .
- ٦ — شكيب ارسلان ، روض الشقيق ، صفحة ٢٤٨ .
- ٧ — ابن كفري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٣ : ٢٣٩ .
- ٨ — بلاشير ، أبو الطيب المتنبي ، دراسة في التاريخ الادبي ، ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني
- ٩ — طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، الدكتور السيد عبد العزيز سالم .
- ١٠ — محمد كرد علي ، خطط الشام .
- ١١ — وخبر التنوخيين ورد في بغية الطلب مفصلا في الورقة ١٣ نقلا عن تاريخ ابي غالب المعري .

